

معالم الإنسان الأخلاقي

كها. محمد أو إله مشنان (*)

الحمد

لله رب العالمين،

وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم أخرجنا من ظلمات الوهم، وأكرمنا بنور الفهم، وافتح علينا بمعرفة العلم، وسهل أخلاقنا بالحلل، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أيها المؤمنون، أيتها المؤمنات، السلام عليكم جميعا، ورحمة الله تعالى وبركاته.

نلتقي وإياكم في هذه الليلة المباركة، لنحيي ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، عظمة القدر، وكيف لا تكون كذلك

وقد قال فيها ربنا ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (1). وقال الله

ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَا أَزْمَرَكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَبِيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. تَنْزِيلُ الْمَلَكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ. سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (2).

إن القدر العظيم مستمد من الحدث الذي وقع فيها وهو نزول القرآن الكريم، ومن التحول الذي كانت بدايته من ليلة القدر، وكان سببه هو نزول القرآن الكريم بما يحمله من رسالة وأهداف ومقاصد.

إن رسالة القرآن ووظيفة النبي ﷺ الكبرى هي صياغة الإنسان القرآني، والإنساني القرآني إنسان أخلاقي، يقول المصطفى ﷺ: «يُعْثُ

لَأُتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ» (3). ولما أراد الله ﷻ أن يعطينا نموذج الإنسان الأخلاقي الكامل، اختار نبيه ﷺ فقال: «وَأَنَّ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ» (4) والنبي ﷺ «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ» (5).

لا يمكن أن نمر على هذه الآية من سورة القلم دون أن يستوقفنا مشهد رسول الله ﷺ وهو يتلقى هذه الكلمات، إنها لشهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله، وإنه ثناء عظيم، من رب عظيم، لرجل على خلق عظيم.

إن أصدق برهان تتجلى فيه عظمة النبي ﷺ هو مشهد تلقيه لهذه الشهادة الربانية في طمأنينة وفي ثبات وفي توازن رغم قوة هذا الخطاب من حيث مصدره ومن حيث موضوعه، أقول هذا لأن الواحد منا يسمع مدحا وثناء من بشر مثله، فتهتز نفسه، وتدغدغ عواطفه، فينساق إلى ذلك المدح، وربما أورثه ذلك عجباً وكبراً.

أما النبي ﷺ فقد تلقى ذلك الثناء العظيم من الله، ويعلم أكثر من سواه من هو الله، ومع ذلك يبقى مطمئناً، هادئاً، ثابتاً راسخاً، إن سيدنا محمداً ﷺ -وحده- هو الذي يرقى إلى هذا الأفق من العظمة، وهو الذي يبلغ قمة الكمال الإنساني.

وفي مقابل ذلك يتلقى ﷺ عتاب ربه أحياناً على بعض التصرفات، ويبقى على ذات التماسك وذات التوازن وذات الطمأنينة. ثم يسمع من الناس أذى كثيراً

وقهما باطلة بأنه ساحر ومجنون وكذاب.

﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْكُمْ كَانُ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (6). فلا يمنعه

ذلك من مواصلة رسالته وإنجاز وظيفته وأداء الأمانة التي كلف بها، بل يصبر على الثبات ومواصلة أداء الأمانة التي التزم بها للناس أمام رب الناس.

هذه هي أخلاق الأبطال وأخلاق الكبار، وأخلاق العظماء الذين هياهم الله لهداية الأمم وقيادة الشعوب. إن المدح لم يستثر فيه غروراً وكبراً، وإن العتاب لم يسبب له عجزاً وإدباراً، وإن شتائم السفهاء من الناس لم تورثه مللاً ولا نفوراً، بل زاده كل ذلك تمسكاً بالحق وإصراراً، لأنه رجل صادق أمين، على خلق عظيم، يعرف طريقه، ويدرك خطورة مهمته، ويتحرك عن علم وحكمة وبصيرة ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو

إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (7).

هذا هو الإنساني القرآني، وهذا هو الإنسان الأخلاقي الذي نزل القرآن في ليلة القدر من أجل صياغته وصناعته،

وهذا هو النموذج الذي اختاره الله ﷻ ليكون قدوة للعالمين فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرٍ﴾ (8)

وبعد هذا المشهد المشرق المضيء تنتقل إلى مشهد آخر أسود مظلم، ففي سورة القلم وبعد الثناء على النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، نقرأ قوله ﷻ: ﴿وَمَا تَطَعُ كُلِّ حَلَّافٍ مِّمَّيْنِ . هَمَّا نَرَىٰ مَشَاءَ بَنِيهِمْ . مَتَاعٌ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَتَيْهِمْ . عَجَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ نَرِيهِمْ . أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تَلَّىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (9)

إن هذا السياق مثير للانتباه، وإن هذا الترتيب مستدعٍ للتأمل، إذ يأتي التحذير من هذه الصفات والردائل الدنيئة، بعد الإشارة إلى قمة قمم الأخلاق، ولعل السر في ذلك أن هذه الردائل تنزل إلى أسفل دركات الأخلاق الخبيثة، كما أن النموذج الأول يرقى إلى أعلى درجات الأخلاق الرفيعة، وفي ذلك إشارة إلى أن الخلق العظيم لا ينبغي أن يدنس بأية رذيلة من هذه الردائل.

ولنسمع إلى بيان هذه المفاصل الأخلاقية، التي تجسدت في شخص وصفه القرآن بأنه:

1 - حلاف، وهذا عنوان الكذب، لأن الحلاف يدرك أن الناس يكذبونه ولا يثقون به فيحلف ويكثر الحلف ليغطي كذبه. أما الإنسان الأخلاقي فهو صادق بعيد عن الكذب، يثق فيه الناس دون حاجة إلى قسم وإيمان.

2 - مهين، والمهين لا يلقى أي احترام، ولا يحظى بثقة الناس. والإنسان الأخلاقي رجل كريم عند الناس يحظى باحترامهم، ويتزلزلون فيهم المترلة الرفيعة اللاتقة.

3 - همار، يعيب الناس في حضورهم وغيبتهم، وهذه رذيلة يغضها القرآن ويحذر منها، يقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمَاءُ الْقُسُوفُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (10)

والإنسان الأخلاقي لا يسخر من الناس بل يسخر نفسه لهم، وقد قال النبي ﷺ: «الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ، فَأَحْبِبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَتَقَعُهُمْ لِخَلْقِهِ» (11)

ولا يحسبهم بسوء ولا أذى «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ
(12)
المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» .

4 — **مشاء بنميم**، فهو في غاية الخطورة والمكر، لأنه يقطع صلات الناس، ويذهب مودة قلوبهم، ويقضي على الأخوة والمحبة التي تجمعهم، وهذه سيرة المروجين للأخبار الكاذبة، والمرجفين الذين يثون العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع الواحد، بألستهم وأقلامهم وأجهزتهم، ولا يفكرون إلا في مصالح ضيقة وآنية يجنونها، ولو كان على حساب الأمة كلها، فلا عجب إذن أن يكون عشاق النميمة هم شرار المجتمع، قال النبي ﷺ: «...شَرَّارُ عِبَادِ اللَّهِ الْمَشَاوِرُونَ بِالنَّمِيْمَةِ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ الْبِرَاءَ الْعَتَّةَ» ، ولا جرم أنهم ليسوا جديرين بالرحمة وحسن الثواب، لذلك قال النبي ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ» (14) ، أي غمام.

والإنسان الأخلاقي متره عن هذه النقيصة القاصمة، فهو يتحرى حسن الظن بالناس: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ» (15) ولا يتقول عليهم بغير علم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ

بَيْنِيَا فَنَبِّئُوهُ أَنَّ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا
(16)
عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ» .

5 — **مناع للخير**، إن القلب إذا تجرد من الفضيلة تجرد من الخير، فتجد صاحب هذا القلب يقف عائقاً أمام كل مبادرة للخير والإصلاح، ومن منع الخير عن الناس فهو شر الناس. قال الله ﷻ: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَافُونَ . وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (17)

6 — **معتد**، يتجاوز الحق والعدل، ومن كان كذلك فهو بغيض عند الله بغيض عند الناس، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (18)

7 — **أثيم**، مرتكب للمعاصي ومقترف للخطايا متتهك للحرمان، وقد توعد الله ﷻ هذا الصنف من الناس فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (19) . أما الإنسان الأخلاقي القرآني فهو أبعد الناس عن الآثام لأن ربه يرشده ويقول له: ﴿وَقَرُّوا ظَاهِرِ الْإِثْمِ وَبَاطِنِ الْإِثْمِ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ (20)

سيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» .

سمات الصفوة والأبطال، فإن هذه العيوب من لوازم الأراذل والأنذال.

يا رب نسألك في هذه الليلة المباركة أن تكرمنا بالخلق العظيم، وأن تهدينا الصراط المستقيم، اللهم وفق ولاة أمورنا إلى ما فيه خير البلاد والعباد، وارزقهم بطاقة حسنة صادقة مخلصة تعينهم على أداء ما تحملوه من المسؤوليات العظام والمهام الجسام.

اللهم أعد الطمأنينة إلى النفوس، اللهم أعد الفرحة إلى القلوب، اللهم أعد البسمة إلى الوجوه.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، اللهم هب طالحنا لصالحنا، اللهم هب طالحنا لصالحنا، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

8 - عتل، وهو الغليظ الجافي اللفظ الذي يتقيه الناس لأنه شخصية كريهة من جميع الوجوه. وصاحب الخلق العظيم رحيم القلب، ليّن الجانب، قريب من الناس **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَكَوْ كُنْتَ قَطًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾** (21).

9 - زنيم، ولعل السياق والسباق وسبب النزول يرجح أن المقصود به من عرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره. والإنسان الأخلاقي معروف بصدقه، وطيبته، وخيره الذي يصل إلى الناس، لأن له أسوة في رسول الله ﷺ الذي جاء **﴿مَجْلٍ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَذِّرُهُمْ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرَاتِ﴾** (22).

هذه صفات ذميمة وعيوب غير لائقة عن أراد أن يسمو بإنسانيته، وهي كلها تسبح ضد تيار الخلق العظيم، والإنسان المستقيم، وإذا كان الخلق العظيم من

الهوامش

- (1) الآيات 3 و 4 و 5 و 6 من سورة الدخان .
- (2) سورة القدر .
- (3) أخرجه الإمام مالك في كتاب حسن الخلق (904/2)، والإمام أحمد (382/2) (رقم 8939) بلفظ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ».
- (4) سورة القلم/4.
- (5) أخرجه الإمام أحمد (رقم 24080، 24774، 25585).
- (6) سورة سبأ/43.
- (7) سورة يوسف/108.
- (8) سورة الأحزاب/21.
- (9) سورة القلم/10-15.
- (10) سورة الحجرات/11.
- (11) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير وأبو يعلى في مسنده، وذكر السخاوي عدة طرق له.
- (12) أخرجه البخاري كتاب الإيمان (رقم 10) وفي غير هذا الموضع، وأخرجه مسلم كتاب الإيمان (رقم 41).
- (13) أخرجه الإمام أحمد (رقم 17537).
- (14) أخرجه البخاري كتاب الأدب (6056)، ومسلم كتاب الإيمان (رقم 105).
- (15) سورة الحجرات/12.
- (16) سورة الحجرات/6.
- (17) سورة الماعون/4-7.
- (18) سورة البقرة/190.
- (19) سورة الجاثية/7.
- (20) سورة الأنعام/120.
- (21) سورة آل عمران/159.
- (22) سورة الأعراف/157.